الإسراء والمعراج في الآداب الإسلامية

ISRA AND MIRAJ IN THE LIGHT OF ILSAMIC ARTS

د. أحمد عبد القادر الشاذلي [١]

ABSTRACT:

Isra and Miraj are two words which mean the night journey of the Prophet Muhammad (PBUH) to the sacred mosque (Baitul Maqdis) and then to the Heaven where he met some messengers and prophets of Allah and discussed them some issues. There are two groups among the Muslims. One believes that this journey happened in real while there ia another group which believes that it was a dream.

Apart from this conflict there is a group of scholars and poets including sufis which has made this journey a simbole through which they go to the Heaven and meet the great persona of their fields. If the scholar is an Arabic poet he meets the great Arabic poets like Imru-ul-Qais, Antarah and amny others. But if the person is a sufi he meets those who believe in his thought and discuss the issue with those who deny it. He also meets Allah.

This article is an analytical and critical study fo such works (both poetic and prose) in Arabic, Persian, Turkisha and Urdu.

KEYWORDS: Isra , Miraj, Baitul Maqdis, Arabic, Persian, Turkisha , Urdu

الكلمات المفتاحية :الإسراء، المعراج ، بيت القدس ، العربية ،والفارسية، والتركية ، الأردية

ملخص البحث

الإسراء والمعراج قضية قد تفرّق فيها الجماعة الإسلامية فرقتين فالأولى تؤمن بقوعها في الحقيقة بينما الأخرى تقول إنها حدثت في الخيال فلم يبلغ الرسول صلّى الله عليه وسلّم إلى السماء ولم يلق الله جل جلاله.

وبغض النظر عن القضية هل وقع هذا أم لم يقع هناك جماعة من الأدباء والصوفية والشعراء قد ذهبت بها مذاهب شتى فالكتّاب مثل أبي العلاء المعري كتبوا مؤلفات في رحلتهم الخيالية إلى الجنة كما هناك

[١] عميد، كلية الآداب، جامعة المنوفية، مصر

صوفية نظموا الأبيات في رحلاتهم الروحية والسلوكية إلى الجنة وإلى لقائهم مع من يؤيدون فكرتهم أو من ينكرن ما يرون.

ففي كل لغة أدب قد استفاد من هذا واستفاض ففي العربية كتب أُلّفت عن هذا كما أُلّفت كتب ودواوين في الفارسية والتركية الأردوية. في هذه المقالة الوجيزة أخذت بعض مؤلفات الأدباء العرب والفرس والهنود وقمت بتحليل ما ذكروا فيها وتخيّلوا ودراستها دراسة نقدية.

هذه دراسة ممتعة ستفيد القرّاء فيما ذهب أدباء العالم بهذه القضية إلى مذاهب عديدة ولوّنوا هذه الواقعة ألوانًا شتى.

مدخل إلى الموضوع

ورد الإسراء في سورة الإسراء في قوله تعالى "سبحان الذي أسرى بعبده ليلًا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير". وورد في سورة النجم "والنجم إذا هوى ما ضلّ صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى علّمه شديد القوى ذو مرة فاستوى وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلّى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى ما كذب الفؤاد ما رأى أفتمارونه على ما يرى ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى إذ يغشى السدرة ما يغشى ما زاغ البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى".

جاءت قصة الإسراء والمعراج جملة في القرآن، وأوردت الأحاديث النبوية تفصيلًا للقصة إلا أن التفصيل لم يكن أيضًا إلا إجمالًا فما رواه النبي صلّى الله عليه وسلّم فقد ورد في الأحاديث الصحيحة أن النبي صلّى الله عليه وسلّم ركب البراق وهو دابة بيضاء فوق الحمار ودون البغل حتى بيت المقدس وصلّى ركعتين ثم ركب المعراج وصعد إلى السماوات السبع حتى سدرة المنتهى فرأى الحق سبحانه وتعالى وأوحى إليه وفرضت الصلاة وعاد إلى الأرض في ليلته.

وجد الأدباء المسلمون ضالتهم في قصة الإسراء والمعراج فنسجوا من خيالهم ما شاء لهم قصصًا شعرًا ونثرًا، ومرت القصة بمراحل:

١. مرحلة التفسير: وهي مرحلة التعليق على الأخبار وتفسيرها وشرح بعض معانيها.

٢. إدخال التحسينات اللفظية والتعبيرات المجازية.

٣. الصياغة الشعرية والنثرية بأسلوب نثري مرسل مع إضافة بعض اللوحات الفنية والصور الجميلة

والتشبيهات التي تخدم الأحداث.

٤. مرحلة دخول القصة حيز التفسير الصوفي الرمزي، ومن هنا بدأت القصة تأخذ أبعادًا ومحاور جديدة لم يتوقف الأديب عند الإسراء والمعراج النبوي بل خرج إلى آفاق خيالية بعيدة عن القصة وأصبحت الروح وصعودها وتطهيرها وتنقيتها من الأدران الحياتية هي مغزى المعراج.

معراج أبي يزيد البسطامي: وكان أول معراج صوفي هو معراج أبي يزيد البسطامي الشاعر الصوفي (ت ٢٦١هـ) والذي صوّر عروج روحه إلى السماء وصولًا إلى الله ومرّ بالسماوات السبع حتى وصل إلى المحيط الأعظم الذي يستقر عليه العرش الإلهي، وقد أدرك الحق سبحانه وتعالى أن مراده هو الوصول إلى الله وعندما اختاره الله صفيًا وحبيبًا ورأى بجوار النبي صلّى الله عليه وسلّم وطلب منه أن يعود إلى الأرض ويبلغ سلامه إلى أمته ويدعوهم إلى عبادة الله.

الإسراء إلى المقام الأسرى لابن عربي: ويقرّر ابن عربي في معراجه المسمّى "الإسراء إلى المقام الأسرى" أنه يعالج عروج الروح إلى السماء ويكشف الصوفي أسرار صعود روحه إلى الله وقد كتبه شعرًا ونثرًا وقصته تتناول خروجه من الأندلس إلى القدس وقد قابل شابًا ذا طبيعة روحانية ويقوده شخص آخر أثناء صعوده إلى السماء من القدس ويصفه بأنه مبعوث العناية الإلهية الذي صعد معه إلى السماوات السبع حتى وصل إلى الحضرة الإلهية.

وقصة ابن عربي في رمزها الصوفي تبرز الصوفية على أنهم في تأملاتهم الروحية يصلون إلى الحضرة الإلهية والبراق هو رمز للحب الإلهي، والقدس هي أول مراحل العروج حيث يتطهر المسافرون الطارقون لأبواب السماء، ويصعدون إلى سدرة المنتهى حيث الإيمان الحق وكشف الحجاب.

وفي الفتوحات الملكية لابن عربي اختصار للمعراج النبوي حيث صعد المؤلف وجادل الأنبياء في العقيدة والشريعة والطريقة والتصوف والعرفان.

والعروج عند ابن عربي يمرّ بمراحل سبع صعودًا إلى السماوات السبع، وفي كل سماء يتعلم الإنسان مبادئ أخلاقية مرتبطة بما للقمر من تأثير روحي على الأجسام، وفي السماء الثانية لعطارد يتلقاه عيسى ويحيى ويتعرف على حقيقة "كن" وهكذا في كل سماء حتى ينتهي إلى الحضرة الإلهية.

يعتمد معراج ابن عربي على الرمز الصوفي وأفكار المتصوفة مع مزجها بالأفكار الفلسفية وهي موسوعة رمزية.

رسالة الغفران لأبي العلاء المعري: أما رسالة الغفران لأبي العلاء المعري (ت ٤٤٩هـ) والتي سبقت ما

جاء به ابن عربي فقط صوّرت الإسراء والمعراج في سورة مبسطة جاءت في رسالة أرسلها المغربي لعلي بن منصور الحلبي المعروف بابن القارح تناول فيها الأدب والفلسفة والتاريخ والفقه واللغة والنحو والتصوف.

كان مقصده من رسالته أن يعبر عن رحمة الله الواسعة التي تعم وترحم الناس جميعًا ومنهم الشعراء المتحررون في عقيدتهم وجاءت الرسالة على قسمين:

الأول: رحلة ابن القارح إلى السماء حيث وجد الجنة بمباهجها وأشجارها وظلالها وأنهارها ولبنها وعسلها وأمنها وسلامها ويرى التائبين وقد جلسوا يتحاورون في ود وصفاء ورأى ابن القارح الشعراء ورجال الأدب واللغة يتناقشون، ويركب دابته ويسير في الجنة فيلتقي بالأعشى وشعراء الجاهلية وقد غفر لهم ربهم وتشفع لهم محمد صلّى الله عليه وسلّم.

ويرى حفلة سمر في الجنة تغنى فيها وترقص الحور العين بعضهن من أهل الأرض ويرى ضروب النعيم عليهن بعد أن تبن وتاب الله عليهن.

ويرى الحطيئة والخنساء في آخر الجنة ثم يرى إبليس بين الجنة والنار في أغلاله فيسأله إبليس عن مهنته فيقول صناعة الأدب فيرد عليه: بئس الصناعة تهب عيشًا قليلًا لا يقيم أود العيال وكم أهلكت أمثالك.

ويرى في النار بشارًا وامرأ القيس وعنترة وعلقمة بن عبدة وطرفة بن العبد والأخطل ويمل الحوار مع أهل النار فيعود إلى قصره ونسي أن يحاور المرقش والمهلهل والشنفري وتأبط شرًا.

وفي القسم الثاني من رسالة الغفران يتناول المعري أسئلة ابن القارح عن الزمان والمكان والتناسخ ومذاهب الحلول ويجيب عليها.

كان الحوار بين بطل المعراج وهو شخص عادي وبين الآخرين حوار أدبي ولغوي يتناول قضايا اللغة والأدب وقد ابتعد عن المسائل العقائدية، وقد أغضب المعري العامة بإدخاله بعض الشعراء والمحببين إليهم النار.

وقصة المعراج كما جاءت في رسالة الغفران هي محاكاة للإسراء والمعراج ولكنها تختلف عنها تمامًا. إنما البناء الهيكلي واحد.

ابن الشهيد الأندلسي ورسائله: وفي القرن الخامس الهجري نرى المعراج عند ابن شهيد الأندلسي في رسالته التوابع والزوابع والتوابع هم الجان والزوابع هم الشياطين، وقد ورد نصها في كتاب الذخيرة في

محاسن أهل الجزيرة لابن بسام في زيارة لوادي الجنة حيث التقى الجني زهير مع توابع الشعراء والكتاب البارزين أمثال امرئ القيس وطرفة والبحتري وأبي نواس والجاحظ والمتنبي وعبد الحميج الكاتب وبديع الزمان الهمذاني.

وتأثير قصة الإسراء والمعراج أوضح من حيث التكوين مع اختلاف بين الموضوع ومحتوياته.

وعلى شاكلتها نجد تأثير قصة المعراج على حي بن يقظان لابن سينا ولابن طفيل الأندلسي وللسهروردي، وقد أثرت هذه القصة على الآداب العالمية تأثيرًا كبيرًا لما تحتويه من أفكار فلسفية وصوفية عالية.

الإسراء والمعراج في الأدب الفارسي

سنائي الغزنوي وسير العباد إلى المعاد: وفي الأدب الإسلامي الفارسي يحظى موضوع الإسراء والمعراج بمكانة عالية حيث اهتم شعراء التصوف بالقصة والموضوع، ومن منهم لم ينظم القصة ضمن معناها في أشعاره وقد جاء سنائي الغزنوي، أبو المجد مجدود بن آدم، على رأس هؤلاء الذين تأثروا بقصة الإسراء والمعراج وقد نظمها في منظومته "سير العباد إلى المعاد" والشبه كبير بين هذه المنظومة والكوميديا الإلهية لدانتي.

وموضوع المنظومة يدور حول هبوط النفس البشرية بأمر إلهي إلى الأرض وهذه النفس مهيأة للقيام بدورين أحدهما استلهام العالم العلوي وثانيهما الانفعال بالعالم السفلي وعلى النفس أن تغلب أحد الجانبين إما أن تسمو وتعلو أو تنحط وتهبط.

والنفس البشرية لكي تتغلب على نوازعها المادية تسعى للعروج لمرشد بأخذ بيدها وينفذها من هذه الحيرة وهنا يظهر الشيخ النوراني المرشد ليأخذها إلىى عالم حيوانات وبشر وهوام ولا بد أن تتحرر النفس من هذه الرذائل.

تبدأ رحلة العروج بالتخلص من عنصر التراب لأنه أثقل العناصر حيث المستنقعات وقطعأن الذئاب والكلاب والفئران والثعابين والخناذير، وهي رذائل مليئة بصفات البخل والحسد.

والمرحلة الثانية هي مرحلة عنصر الماء حيث البحر الواسع الذي يخشاه الإنسان (المريد) فيشجعه المرشد لاجتيازه بالتخلص من كل ما يمت بعالم التراب، ويتجه نحو البحر حيث يرى جماعة تمثل الكسل وهم يفتحون أفواههم في بلاهة انتظارًا لقطرات الندى، وهم في كسل عقلي ووجداني.

ويخرج وادي النار حيث السحرة ويخشى المريد ويشجعه الشيخ فيعبره إلى عالم الأفلاك وهو عالم بين الكون والفساد وعالم الملكوت، بين عالم الفناء وعالم الخلود وهذا يمر بكواكب الزهرة والمريخ والمشتري وغيرها من الكواكب ويصل إلى دائرة العقل الكلي.

ابن سينا وقصيدته العينية: ويتناول ابن سينا في قصيدته العينية سعي الروح للصعود من الجسم الفاني إلى عالم الخلود بقوله:

هبطت إليك من المحل الأرفع	ورقاء ذات تعزز وتمنع
وصلت على كره إليك وربما	كرهت فراقك وهي ذات توجع
تبكي إذا ذكرت عهود بالحمى	بمدافع تهمي ولم تتقطع
إذا عاقها الشرك الكثيف وحدها	قفص عن الأوج الفسيح المربع
فلاي شيء أهبطت من شامخ	عال إلى قعر الحضيض الأوضع
إن كان اهبطها الإله لحكمة	طويت على الفذ اللبيب الأروع
وهبوطها إن كان ضربة لازب	لتكون سامعة بما لم تسمع

فريد الدين العطار ومنظومته منطق الطير: وتأتي قصة المعراج عند فريد الدين العطار في منطق الطير في منظومة طولها أربعة آلاف بيت تدور حول هجرة ثلاثين طائرًا "سي مرغ" إلى اللقاء سيمرخ والطيور ترمز للمريدين أهل الصوفية السالكين، والعنقاء هي الحق سبحانه وتعالى.

تدور القصة حول اجتماع ثلاثين طائرًا يتزعمهم الهدهد وقد قرّروا الوصول إلى العنقاء، وعندما تقرر ذلك أخذ كل طائر يلتمس عذرًا حتى لا يسافر هذا السفر الطويل فاعتبر البلبل والببغاء والطاؤوس والحجلة والبجعة والهما (وهو طائر أسطوري وهمي) والصقر والعصوة.

وتمثل هذه الأعذار أعذار البشر وأخذ الهدهد يرد على أعذار الطيور ويضرب المثل والحكاية، وتقرر الطيور المشاركة في الرحلة بزعامة الهدهد، وهو رسول الهداية إلى بلقيس وقومها.

سلك الطيور الثلاثون سبعة أودية هي وادي الطلب والعشق والمعرفة والاستغناء والتوحيد الحيرة والفقر والغنلء وتمكنت خلال هذه الأودية من التخلص من قيود النفس وأمراضها ووجدت ضالتها حين نظرت في آخر الرحلة إلى نفسها فوجدت صورتها فهي (سي مرغ) هي نفسها "سيمرغ" والوديان السبعة

هي المقامات التي يمر بها المريد للوصول إلى الله وتعبر هذه المنظومة عن فكرة الصوفية حول "الفناء في الله".

الإسراء والمعراج في الأدب التركي والأردي: وفي الأدب التركي جاءت قصة المعراج ضمن أشعار شعراء التركية ولكنها لم تصل إلى مستوى ما وصلت إليه عند أدباء الفرس.

وكانت منظومة محمد إقبال "جاود نامه" (رسالة الخلود) تدور حول فكرة العروج ومنها نجد إقبال هو المريد الذي اتخذ جلال الدين الرومي شيخًا مرشدًا له للوصول إلى الحضرة الإلهية، وجلال الدين الرومي هو إمام أهل التصوف الذي دعا المسلمين إلى العشق وقد انتشرت دعوته في طريقته المولوية والتي انتشرت في تركيا والبلاد العربية.

وقد قام إقبال بعرض عروج الإنسان بالروح ةالجسد معًا خلافًا لما أورده ابن عربي من عروج الروح فقط وهنا تشابه كبير بين الرومي ومحمد إقبال في فكرة الإحساس بالغربة وقرب الذات الإلهية وقوة العشق وتحقيق الخلود وحقيقة الموت ومبدأ الحركة.

التف أدباء المسلمون للنهل من قصة المعراج واتخاذها رمزًا يبثون فيها أفكارهم وثقافتهم التي ورثوها إسلاميًا أو محليًا أو تأثرًا من ثقافات أخرى إلا أن الأثر الإسلامي كان أكثر وضوحًا حين بهتت المؤثرات الأخرى.